المرأة في حياة الأديب

« على ذكر مقال للأستاذ توفيق الحكيم »

للأستاذ ابرهيم عبد القادر المازني

كتب الأستاذ توفيق الحكيم مقالاً في مجلة الثقافة عن المرأة في حياة الأدباء ، أو لا أدري ماذا كان العنوان على وجه الدقة فقد غاب عني عدد الثقافة تحت أكداس من الورق والكتب والمجلات . وفي هذا المقال يذكر (أو يقرر) أن كل أديب أو كل عظيم لا بد أن تكون في حياته امرأة ؛ وهو يعني بالمرأة (على ما يؤخذ من ظاهر المقال إلا إذا كان له معنى أعمق خفي على) امرأة معشوقة، أي امرأة تكون علاقة الرجل بها جنسية، شرعية كانت أو غير شرعية . وقد ذكر من أبناء الشرق السيدة خديجة ونبينا عليه الصلاة والسلام، ثم طوى كل هذه القرون التي مضت ووثب إلى الدكتور طه حسين ثم إلى الأستاذ احمد أمين ثم إلى الأستاذ العقاد ، وعين المرأة التي يراها في حياة كل منهم ؛ ثم قال عني إن « الكذب » هبتي (يعني الخيال والاختراع وإن كان التعبير « بالكذب » غير موفق) وقال إن الخيال يختلط بالحقيقة في كتابتي حتى ليتعذر الاهتداء إلى المرأة التي كان لها تأثير في حياتي ، ولكنه أعرب عن يقينه أن في حياتي امرأة (ما في هذا ريب عنده) . وقد اغتنمت فرصة كتاب جديد له (راقصة المعبد) تفضل فأهدى إلي نسخة منه فكتبت إليه كلمة وجيزة في الموضوع على سبيل التصحيح ؛ ولكني أرى هنا أن أتناول الموضوع من ناحية أعم

وأنا أولاً لا أرتاح إلى هذا التناول لحيوات الناس الخاصة . وليس كونهم أدباء أو مشهورين لسبب ما ، بمجيز في رأيي أن نجعل من حياتهم الخاصة وأحوالهم الشخصية «معرضاً» ؛ وهذا عندي فضول أكرهه وأقل ما فيه أنه يُفقد المرء حريته واستقلاله . وإذا كنت أروي كثيراً مما أكتب على لساني وأورده بضمير المتكلم فليس معنى هذا أن ما أرويه وقع لي وإنما معناه أني أرتاح إلى هذا الأسلوب في القصة وأراه أعون لي على تمثل ما أحاول وصفه وتصويره . فليس فيما أروي شيء شخصي ، وكثيراً ما نبهت إلى هذا ، ولكني أهمله أحياناً اعتماداً على فطنة القارئ

ثم إني ثانياً لا أرى الأستاذ توفيق الحكيم موفقاً في رأيه، فليس من الضروري أن يكون للرجل امرأة في حياته أو للمرأة رجل في حياتها ، أي أن تكون هذه المرأة المعينة هي التي وجهت حياته وجهتها وأثرت فيها تأثيراً جعلها كما هي . والقول بذلك لا يخرج في الحقيقة عن أن يكون مظهر تقليد لبعض ما يكتبه الغربيون . وقد ذكر الأستاذ توفيق السيدة خديجة ونبينا عليه الصلاة والسلام على سبيل التمثيل ، وأراه في هذا المثال مبالغاً . فما تزوج النبي السيدة خديجة لأنه عشقها، بل الذي حدث هو أنه عمل لها في مالها وتجارتها فأعجبت بأمانته وسرها حسن سيرته واستقامته فرغبت هي أن يكون زوجها . وجاءه رسول يدعوه إلى ذلك أو يقترحه عليه وكان هو يعرف لها فضائلها فقبل . وكانت له نعم الزوجة الحكيمة الوفية الرزينة المخلصة . ولكنه ليس هناك عشق بالمعنى المعهود، ولا يمكن أن يقال إنها وجهته أو أثرت في حياته التأثير الذي يقصده الأستاذ توفيق حين يذكر المرأة في حياة الرجل، وإن كان غير منكور أنها كانت إلى حد ما عامل استقرار وأمن وراحة في حياة النبي . وقد سألت الأستاذ توفيق في كتابي الخاص إليه عن المرأة المعينة في حياة المتنبي أو أبي العلاء أو الشريف الرضي؛ ولا بأس من سؤاله أيضاً عن هذه المرأة المعينة في حياة أبي نواس وبشار ومن إليهما . كلا . ليس من الضروري أن تكون في حياة الأديب امرأة معينة بالمعنى الجنسي وإن كانت حياة الرجل لا يمكن أن تخلو من المرأة على العموم . وفرق بين الأمرين . على أن كل شيء في الحياة ليس عند الأديب أكثر من «مادة» وإن كان الأمر في بعض الأحيان يبدو غير ذلك عند النظر السطحي أو السريع

وقد جعل الأستاذ توفيق مزيتي أو هبتي « الكذب » وأنا أشكر له أن رأى لي مزية أو هبة ، ولو كانت «الكذب» ؛ وإذا كنت أخلط الخيال بالحقيقة فإني أحسب أن هذا لا مفر منه ، ولا أدب إلا به . وما أظن الأستاذ توفيق نفسه يفعل غير ذلك أو يشذ عنا معشر الأدباء « الكذابين » فما كان الأديب قط ولن يكون عدسة آلة تصوير . وإذا كان الأستاذ توفيق يظن أن الأستاذ العقاد لم يفعل في رواية « سارة » أكثر من أن يروي حادثة كما وقعت فإنه يكون قد ركب من الوهم شر المركب؛ فإن صنعة

« سارة » النوص في لجة النفس لا الحكاية بمجردها، والكشف عن أخفى خباياها ، والتحليل الدقيق للخواطر والخوالج الخ .

ولا قيمة لكون القصة حقيقية أو غير حقيقية وإلا هبطنا بالأدب إلى الإعلانات التي يقولون فيها لأصحابها إن القصص التي ينشرونها في مجلاتهم وقعت فعلاً

وليس ما يمنع أن تكون في حياة الأديب أو سواه « امرأة » معينة ، ولكنه ليس من الحتم أن تكون هذه المرأة المعينة زوجة أو خليلة ، أي مشوقة على العموم ، ولا أن تكون العلاقة بها علاقة جنسية . فقد تكون أماً أو أختاً أو صديقة أو بنتاً . وقد كانت في حياتي امرأة دلك الأستاذ توفيق عليها في رسالتي إليه وهي أمي ، فقد كانت أمي وأبي وصديقي ، وليس هذا لأنه لم يكن لي أب ، فقد كان لي أب كغيري من الناس ، ولكنه آثر أن يموت في حداثتي ، فصارت أمي هي الأب والأم ، ثم صارت على الأيام هي الصديق والروح الملهم . وقد استنفدت أمي عاطفتي الحب والإجلال ، فلم تبق لي حباً أستطيع أن أفيضه على إنسان آخر ، أو إجلالاً لسواها . ومثلي في ذلك كمثل من يمص عوداً من القصب ويعتصر كل مائه ، فلا يبقى من العود بعد ذلك إلا الخشب الذي لا يصلح إلا للوقود .

ومن هنا عجزي عن الحب بالمعنى الشائع . نعم أستطيع أن أصادق وأصفو بالود ، ولكن العشق على مثال مجنون ليلى أو كما يصفه لنا الشعراء حال لا قبل لي بها ولا طاقة لي عليها لأن ذخيرتي من هذه العاطفة نفدت وليس في وسع نفسي أن تبذل هذا المجهود مرة أخرى .

ومع ذلك أقول إني أرى في عاطفتي لأمي غير قليل من جهد الخيال وإرادة النفس ، وهي في الأصل ولا شك عاطفة صادقة وقوية ولكنه يخيل إلي أني غذيتها وقويتها بالإيحاء المستمر إلى النفس ، لأني كالظروف دائم الاجترار لما في جوفي . وأحسب أن العاطفة قد راقتني وفتنتني إلى حد ما ، أو أني وجدت فيها رياً لنفسي أنشده فأجتليه ، فتعلقت بها وضخمت أمرها ، وقويتها بالدؤوب في الإيحاء كما تقوى النار بالحطب حتى استغرقت نفسي كلها . وعمرت صدري أجمعه . وما أظن إلا أن هذا سبيل كل إنسان فإنه لا يفتأ

(البقية على صفحة ٨٦٨)

من رسائل القراء

قرأت لك في مقال أنك تساعد ناشئة الأدب . واشترطت لذلك شروطاً . وإني راض بها وإليك ما يزيدك معرفة بي : إني قراض مذاكر ، أجرى ضئيل يبلغ ١٢٠ مليماً في اليوم . واطلاعي محدود . وذلك ناجم عن فقري ، لا أقرأ غير الرسالة والرواية والثقافة . ولم أقرأ من الكتب غير بعض مؤلفات المنفلوطي وكتب أخرى . وكانت كتابتي جيدة في الموضوعات الخيالية فقط . ولكني منذ بدأت آثاركم تغلبت طريقتكم علي . وأنا قوي الذاكرة وأميل إلى التفكير . وأستطيع أن أنفق في شراء الكتب الأدبية ما يقرب من نصف الجنيه شهرياً كما أني أستطيع أن أختلس للأدب خمس ساعات يومياً . لعل في هذه الإيضاحات ما يهون عليكم أمر مساعدتي على السير في طريق الأدب الذي تصفونه بأنه وعر شائك . ولقد زاد إغرائي به ما نشرتموه في « الرسالة » من تحذير للشبان من الاشتغال به في هذا العصر . . . !

نشرت هذه الرسالة التي جاءتني ضمن عشرات الرسائل في هذا الموضوع لسبب واحد : هو عجبي وإعجابي بقارئ تلك حاله . يبذل عن طيب خاطر سدس مرتبه الشهري وقسطاً وافراً من وقته في سبيل الأدب . إنه ذكرني بقراء أوربا . أولئك الذين يخصصون جزءاً ثابتاً في ميزانياتهم للكتب ووقتاً منتظماً معلوماً للقراءة . مثل هؤلاء القراء هم الذين قامت على أكتافهم نهضات أوربا الأدبية . وهم الذين ظهر من بينهم أدباء أوربا العظام . فإن الأديب لا يتخرج في مدرسة . إنما ينبت في حقل الكتب والمطالعات الشخصية . وفي الأدب الفرنسي الحديث مثل صارخ لأديب من أصل بلقاني هو : « بانايت استراتي » لم يكن يعرف الفرنسية ولكنه غرق سنوات في المطالعة وضن بماله القليل على الطعام وأنفقه في شراء كتب جعل يلتهم صفحاتها التهاماً . وإذا هو في يوم من الأيام قد استطاع الكتابة بالفرنسية وإذا هو كاتب معروف يبيع من كتبه الألوف . أعطوني إذن ألفين من طراز هذا القارئ وأنا أضمن لمصر نهضة أدبية رائعة وأدباء جدداً يسيرون في طريق المجد .

توفيق الحكيم